

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٠ —

الديانة الفارسية

مصر العالم

يحدثنا قسم « الجاهل » أن نهاية العالم موقوفة بموت « زرادشت » وأن « أهورا » أراد أن يحتم به هذه الحياة الدنيا ، وهو لهذا يدفعه في حماسة إلى تأدية رسالته بأسرع ما يستطيع ويأمره أن يصعد بأوامر ربه وأن يعلن أنه سيتقدم بعد موته إلى القضاة الثلاثة الواقفين على الميزان أمام باب الصراط ، ليؤدي الحساب عن نفسه والشهادة عن جميع أتباعه الذين سيتحقق فناؤهم على أثر موته .

غير أن الكون ظل بعد « زرادشت » سائراً في طريقه كما كان في حياته وقبل وجوده ، ولم يمت الانتصار ولا الخسوم ، ولم ينته العالم . فلما رأى رجال الدين الأسنة الحداد بدأت تنبجهم اليهم من جانب خصومهم ، أرادوا أن يتحللوا من هذه الورطة التي أوقعهم فيها نبيهم الساذج ، فأضافوا إلى الكتاب المقدس آيات جديدة تحوى تأويلات للآيات القديمة وتصرح بأن جميع الزمن المحدد للكون هو اثنا عشر ألف سنة مضت منها ثلاثة آلاف سنة في خلق العالم الروحاني ، وثلاثة آلاف في إنشاء العالم المادي ، وثلاثة آلاف فصلت بين وجرى بني الإنسان ووجود « زرادشت » ؛ وثلاثة آلاف بين عصر « زرادشت » ونهاية الحياة الدنيا . أما التصريح الجازم في الجزء القديم بأن نهاية العالم ستكون عند نهاية حياة « زرادشت » فقد عرفوا كيف يتخلصون منه بلباقة لا بأس بها حيث أعلنوا أن « زرادشت » لم يمت كما رأى الناس في الظاهر ، وإنما نزلت بذرة الخصلة في البحيرة المقدسة ، وستظل فيها تنمو وتروح حتى قبيل نهاية العالم ، فإذا

حان هذا الوقت المضروب نزلت إلى هذه البحيرة فتاة عذراء طاهرة ، لتفتسل فيها ، وإذ ذاك تنفعل هذه البذرة إلى بطن العذراء فتحمل لساعتها بمنجى العالم ومن على يديه سيكون انتهاءه فإذا ولد هذا المنجي وشب ، أخذ يدعو إلى دينه واصطفى له من التلاميذ خمسة عشر رجلاً وخمس عشرة امرأة ، ليعاونوه على تأدية رسالته إلى أن ينتهي أجله المحدد بسبع وخمسين سنة فينتهي بانتهائه الكون . وعلى أثر ذلك يبدأ البعث فتمتلئ بقاع الأرض بعباء شديدة الحرارة تسيل كلها من معادن صهرتها النيران القوية فأما الأخيار فيحسون كآثها حمامات من لبن فاتر يجد الجسم فيه لذة وسروراً ؛ وأما الأشرار فيسجدونها قاسية مؤلمة ، ولعل العذاب بعباء هذه المعادن هو آخر ما يقاسيه أهل الأعراف الذين هم بين الجنة والنار ، ثم يدخلون بعد ذلك في زمرة المعفو عنهم عند ذلك ينهزم إله الشر الهزيمة الأخيرة ويُلقي بالشعب الذي كان يمثل في وسط هذه المعادن فينصهر فيها ويستقر كل من السعداء والأشقياء في مكانه استقراراً أبدياً بلا تغيير ولا تبدل . ولكن عقيدة التأيد في الجحيم لم تستمر على حالها ، بل لم تلبث أن صارت موضع نقاش بين رجال الدين انتهى بأن قر الرأي على أن للعذاب في الجحيم حداً ينتهي عنده فيلحق المذبذون بالأخيار النعمين ، وإذ ذاك يتم السلام النهائي .

الفلسفة العملية أو الأخلاق

ليست الأخلاق من وضع الأهواء البشرية ولا من اختراع المنافع الفردية حتى تتأثر بالأزمة والامكنة والظروف المختلفة ، وإنما هي قوانين عامة خالدة ، ولذلك ترى الفضائل الجوهرية هي هي عند قدماء المصريين ، وعند الهنود والفرس والصينيين واليونان والرومان كما هي عند شعوب القرن العشرين في جميع بقاع الأرض إلا من تغيرت طباعهم ، وتبدلت فطرتهم بسبب من الأسباب التي أجمع علماء الأخلاق والنفس والاجتماع على تأثيرها في السلوك البشري .

لهذا كانت الفضائل عند الفرس كما هي عند غيرهم من الأمم تتألف من صفوف ودرجات ، لكل صف منها منزلته الخاصة ، فثلاث الشرف والاحسان والأمانة الزوجية من الجانبين كانت في الصف الأول . ولقد كانت العدالة والدعة والاخلاص والصدق

اشتياق الإله « براجاباتي » إلى التكثير وعن تجزيته نفسه
صونشره أجزائه في الكون ليوجد منها جميع الكائنات .

أما رأيه في المبادئ الأولى فهو يتلخص في أن يكون مبدئين
الخير والشر ، وهما أزليان أبديان متساويان في كل شيء . ولا شك
أنه في هذه النقطة قد تأثر برادشت من ناحية وبديانة « الثانوية »
المغالية التي نشأت من مذهب زرادشت من ناحية ثانية . وإليك
ما يقوله الشهرستاني عن هذا المذهب : « حكى محمد بن هارون
المعروف بابي عيسى الوراق ، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب
القوم ، أن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين
قديمين ، أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزلوا ولن
يزالا ، وأنكروا وجود شيء لامن أصل قديم وزعم أنهما لم يزلوا
قوتين ، حاسين ، سميعين ، بصيرين ، وهما مع ذلك في النفس
والصورة والفعل والتدبير متضادان ، وفي الخير متحاذيان تحاذي
الشخص والظل » . إلى أن يقول : « ثم اختلفت المانوية في
المزاج وسببه والخلاص وسببه فقال بعضهم : إن النور والظلام
امتزجا بالخطب والافتاق لا بالقصد والاختيار ؛ وقال أكثرهم :
إن سبب المزاج أن أبدان الظلمة تشاغل عن روحها بعض
التشاغل فنظرت إلى الروح فرأت النور فبغت الأبدان على عمازجة
النور فأجابتها لا يسراعها إلى الشر ، فلما رأى ذلك ملك النور
وجه إليها ملكاً من ملائكته في خمسة أجزاء من أجناسها الخمسة
فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية فخالط الدخان نسيم ،
وإنما الحياة والروح في هذا العالم من النسيم ، والهلاك والآفات
من الدخان ، وخالط الحريق النار ، والنور الظلمة ، والسموم
الريح ، والضباب الماء ، فاف في العالم من منفعة وخير وبركة فمن
أجناس النور ، وما فيه من مضرة وفساد وشر فمن أجناس الظلمة
فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكاً من ملائكته بخلق
هذا العالم على هذه الهيئة ، لتخلص أجناس النور من أجناس
الظلمة » (١) .

الميثافيزيق المانوية

يرى هذا المذهب أن الانسان الأول مخلوق للنور أو للشمس
الذي هو « أهورا مازدا » وكان هذا الانسان في أول الأمر نوراً
(١) صفحتي ٦٥ و ٦٦ من الجزء الثاني من كتاب الشهرستاني

من أجل الفضائل كما كان العمل على تنمية النوع البشري
وتقويته من أهم الواجبات الدينية ، ولهذا أباحت الشريعة
« الزرادشتية » تعدد الزوجات ، ليكثر النسل ، وحرمت الصوم
لتوفر القوة في جميع أفراد الشعب ، وكذلك محاولة زيادة خصوبة
الأرض والاستمتاع بها في هذه الحياة من خيرات ولذات
مشروعة كانت من أسس فروض الشريعة حتى أن إهمال بقعة
من الأرض بدون نبات أو عدم الاكتراث بالترين كارتداء رث
الملابس أو عدم المبالاة بتنظيم قص الشعر والأظافر ، كل ذلك
كان من الجرائم المقوطة ، أما الرذائل المستفظة فهي أضرار
هذه الفضائل طبعاً .

هناك فضائل ثانوية أو مستحبات أخلاقية مثل أكل اللحوم
وجميع الأطعمة المغذية ومحاولة الاحساس بالسرور ، ومثل مهاجمة
لأعداء من الأفراد بنظير ما قدمه ، أما الدفاع عن النفس أو
عن الوطن ، فقد كان من الواجبات المقدسة .

هذه هي أهم الفضائل الجوهرية والثانوية ولم يبق عدا ذلك
لا أعمال هي إلى الأساطير الوثنية أقرب منها إلى الفلسفة العملية
ذلك مثل حظر قتل القناذف وكلاب البحر كما أسلفنا .

الديانة المانوية

حياة ماني

لم يعرف التاريخ عن حياة « ماني » أو « مانيس » مؤسس
ديانة المانوية أكثر من أنه ولد في « بابل » سنة ٢١٥ وقاتله
حد ملوك الفرس في سنة ٢٧٥ بعد المسيح وأنه كان متسكاً
صوفياً متشاعفاً لا يؤمن بانتصار الخير على الشر ألبتة ولا أمل
ده في صلاح هذا الوجود ، وأنه تأثر في بعض نواحي مذهبه
برادشتية وفي البعض الآخر بالتيهية القديمة التي عبث بها
نقلية الرومانية فبدلت منها الشيء الكثير ، وفي البعض الثالث
بديانة البراهمية الأولى ، وفي الرابع بالمسيحية قبل وضع قواعد
مكتيسة كما يتبين ذلك كله في آرائه .

نزهة

يرى « ماني » أن العالم نشأ من عملاق قسم جسمه إلى
بزاء ثم كون الموجودات من بعض هذه الأجزاء . ولا ريب
ك تذكر أسطورة بدء الخلق عند الهنود ، وهي التي حدثتنا عن

فقد وجب علينا أن نبدأ بتطبيق هذه المبادئ عليك ، ثم أشار إلى الجلاد أن يبدأ بتدميره ليؤمن قبل موته بالشروع في تحقيق مذهبه وقد حدث هذا بالفعل كما أشرنا إليه في حياة ماني .

الرباط المزدكية

عاش « مزيك » حوالي نهاية القرن الخامس بعد المسيح ، وكان قد تأثر بمذهب ماني من بعض نواحيه ، وسار على منواله في كثير من مبادئه الفلسفية والدينية ، وإن كان قد خالفه في آرائه الاجتماعية مخالفة شديدة حيث أعلن وجوب اعتناق الشيوعية الغالية ، وصرح بأنها هي وحدها الوسيلة إلى إبادة الشر ، إذ الحقد الذي يأكل قلوب بني الانسان ، والحرب التي تمزق أشلاء أحد الآخرين بيد الآخر لا مصدر لها إلا الأموال والنساء ، فاذا ألغيت الملكية وأعيد الزواج وأصبح المال والمرأة مباحين لجميع الأفراد بلا قيد ولا شرط طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ووضعت الحرب أوزارها إلى نهاية الوجود ، وهو كما ينبغي أن تباح الأموال والنساء ، يريد كذلك ألا يختص أحد بطقوس دينية دون الآخرين حتى تزول جميع الفروق والاختصاصات التي هي منشأ كل بلاء في هذا الكون .

سقوط الرباطات الفارسية

لما فتح « الاسكندر المقدوني » بلاد فارس وانتشر الإغريق في أنحاء البلاد وأحرقوا الكتب المقدسة والصحف الدينية تلبلت العقول والأفكار والعقائد في تلك الأصقاع ، وصادفت هذا الاضطراب ظروف أخرى لا تقل أهمية عن الأولى ، وهي اجتياح ذلك الخليط العجيب من الفرس والمصريين واليونان واليهود في مدينة الاسكندرية كما سنشير إلى ذلك عند الحديث عن الأفلاطونية الحديثة .

اجتمع هذان العاملان القويان فحدث من اجتماعهما مزيك ديني غريب غمر الشرق الأدنى من أقصاه إلى أقصاه . ويعلم الأستاذ « سورا » على هذا بقوله : « إن هذا التخمر الديني للتباين العناصر هو الذي قذف بالمسيحية إلى حيز الوجود كما تقذف الأنبياء بالزبد إلى خارج أوانها » .

محضاً وأن حكمة خلقه إياه إنما هي الجهاد ضد الظلم ، ولكن هذا الخصم العنيف لم يلبث أن انتصر على الانسان وكبله بالأصفاد وقاده إلى سجنه الحالك ولكن قوة إله الخير عملت على تخليصه من هذا السجن فنجحت بعض الشيء ، لأن إله الشر كان قد تمكن من حبس جسمه النوراني في هذا التعمد الكثيف المكون من المادة المظلمة . وإذا ، فللادة أو الجسم الانساني أو « الماكروسكوم » و « الميكروسكوم » كما كانوا يسمونهما هما أصل الشر والسوء في هذه الحياة ، لأنهما سجن الروح النورانية ومن هذا نشأت عند « ماني » فكرة وجوب تخليص النفس من الجسم أو إنها ، هذا العالم المادي باضعاك النوع البشري وإبادة النسل بواسطة حظر الزواج وغير ذلك من وسائل التخريب والتدمير التي عمل على نشرها والتي لم تكن ملائمة لطبيعة الفرس الذين جيب إليهم زرادشت متع الحياة ولذاتها وعرفهم وسائل القوة والاختصاص .

مصير العالم المادي

ليس للمانوية في هذا الشأن شيء جديد لأنها تبث خطوات الزرادشتية شبراً بشبر وذراعاً بذراع إلا فيما يختص بقاء الشر وامتزاج مملكته بمملكة الخير وتحقيق السلام العام ، فقد أنكرت المانوية ذلك تمام الانكار ، وجزمت بأن الملكيتين ستظلان متباعدين متعاضدين أبداً .

نهاية ماني

لم تكذب مبادئ المانوية تنتشر في بلاد فارس حتى تدمر الشعب مما احتوت عليه من ضعف ويأس وتشاؤم وازواء وحرمان من لذات الحياة الباحة ، ثم أخذت هذه الضجة تملأ وتنشر حتى بلغت أسماع الملك فأحضره أمامه ، وناقشه في مذهبه ، فلم يخف عليه شيئاً مما فيه ، وصرح أمامه بأن التخلص من الشر أمر مستحيل ، وأن استمرار العالم في الحياة معناه استمرار الشر ، وأن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا الشر هي تدمير هذا العالم ، فلم يكن من الملك إلى أن قال له : إن الحكيم المخلص لمذهبه يجب أن يبدأ هو قبل غيره بتطبيق هذا المذهب على نفسه ، فإن لم يفعل بدأ أنصاره ومريديه بتطبيقه على أستاذهم ، ولما كنا من أنصارك

(١) التخيل

للدكتور جميل صليبا

—❦—

للتخيل بحسب اصطلاح الفلاسفة معان كثيرة فبعضهم (ديكارت) جملة قوة مصورة تعيد ما في الخيال من الصور وتثله تمثيلا محسوسا . وبعضهم جملة قوة مبدعة تركب الصور وتؤلف المعاني الجديدة وتخترع . وبعضهم جملة قوة وهمية كاذبة تنشأ عنها الأوهام والأحلام ، حتى لقد وصف تلاميذ ديكارت هذه القوة بقولهم : إنها « مجنونة الغزل » و « باعثة على الخطأ والربذيلة » أما فلاسفة العصر الحاضر فيجدون التخيل ضروريا للإنسان لأنه يخفف آلامه ويحبب إليه الحياة ويكشف له عن أسرار الكون . إن اختلاف معاني التخيل جعل أحد الفلاسفة المعاصرين يقول : إن هذه الكلمة الضرورية للغة العامة يجب أن تزول من قاموس علم النفس لكثرة معانيها^(٢) وأنه يمكن استبدالها بكلمات أوضح منها كالصورة والابداع والأحلام . على أنه لا غنى لنا عن هذا الاصطلاح لأن في كل من الصورة (التخيل التمثيلي) والابداع والأحلام شيئا من التخيل . ولنبحث الآن في التخيل البدع

التخيل المبدع

التخيل التمثيلي والتخيل البدع : الحقيقة والخيال

التخيل التمثيلي هو ذاكرة بدون عرفان ، أو هو كما قيل رجوع الصور النفسية إلى ساحة الشعور . ونحن نعلم أن الصورة هي بقاء الاحساس في الشعور بعد غياب المؤثر . أو هي ذكرى الاحساس . فإذا استرجع الإنسان صورة جبل أو نهر ولم يعرف أي جبل يرى ولا أي نهر يتصور كان تخيله تمثيلا *Imagination reproductrice* لأن الخيال بعيد ما حفظته النفس وبقى فيها بعد غياب المحسوسات . فهو إذن شبيه بالذاكرة إلا أنه كما قلنا ذاكرة بدون عرفان . إن هذا الخيال التمثيلي يقتصر كما نرى على استرجاع الصور المحفوظة في

(١) من كتاب « علم النفس » للدكتور جميل صليبا يقوم بطبعه « مكتب النشر العربي بدمشق »

(٢) غوبلو Goltot المفردات الفلسفية . مادة التخيل . الخيال يجب الاصطلاح غير التخيل (ابن سينا)

هذا في فلسطين ومصر ، أما في بلاد فارس فكانت سائدة فيها الديانة الفارسية « الزرادشتية » بعد أن عبث بها أيدي الأهواء والأغراض ، وبذلت فيها وزادت عليها مطامع رجال الدين يشبهونهم ، وقد ظلت هذه السيادة طول حكم الدولة الساسانية ولم تحن الرأس إلا في القرن السابع بعد المسيح حين هاجمها لاسلام وهو في عنفوان شبابه ، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر في المياه (على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين) وإن كان البعض الآخر من الباحثين يجزم بأن الديانة « الزرادشتية » تتلashed تماما أمام الاسلام ، وإنما تركت آثارا تذكر في بعض واحيه ، إذ ليس بعض الفرق الاسلامية إلا لونا من ألوان الديانة الفارسية ، بل ليس تقني عمر الخيام بالخرم وتقديس بشار بن برد لنار وزندقة ابن المقفع ومروق الجاحظ في بعض آرائه إلا من قايا البيانات الفارسية .

غير أن الذي لا شك فيه هو أن الاسلام قد اكتسح الديانة الزرادشتية « اكتساحا ملموسا ولم يدع لها من معتققيها إلا نحو عشرة آلاف نسمة في بلاد الفرس ونحو مائة ألف في بلاد الهند هم الذين أشرنا إليهم في مبدأ حديثنا عن الفرس ، وقلنا إنهم يزالون يُمرضون جثث موتاهم للوحوش .

أما المانوية فقد انتقلت إلى أوروبا مع الرومانين الذين كانوا ، بلاد فارس ، ثم جمعت تنتشر في جميع أجزاء الامبراطورية الغربية الرومانية ، ولكن في خنوع وإذعان للمسيحية جعلها من الأهازى أقرب منها إلى المذاهب الجديدة كأن تصرح مثلاً أن خالق الكون هو إله الشر ، وأن المسيح هو إله الخير نصمه العنيف الذي ضرب التمثل الأعلى على خيريته بتضحية لبسه للصلب في خير الإنسان .

ما زالت هذه الديانة المانوية تتلاشى في المسيحية على هذا نحو حتى ابتلعها نهائيا ولم يبق لها في الوقت الحاضر من أثر ، أوروبا إلا على الآراء الاجتماعية مثل الاشتراكية والشيوعية ما شا كلهما من الآراء المتطرفة التي اعتنقتها المانوية بعد عصرها لأول ثم حملتها معها إلى أوروبا فكانت جبروتة كثير من المذاهب الاجتماعية الأوروبية في العصور الحديثة .

محمد محمود

« يتبع »